قبائل بني يزناسن و احتضانها للأولياء

محمد ستي

تقام مواسم احتفالية سنوية متفرقة حسب كل قبيلة، ارتبطت في بدايتها بالولي الذي أقيم له ضريح، تكريما لما كان يتميز به من علم سعى إلى نشره بكل عزم و جلد، و تقديرا لذلك فقد تواعد مريدوه على إقامة حفل سنوي سمي" بالوعدة"، و هي عهد قطع لممارسة هذا الطقس بأشكال تختلف حسب كل قبيلة، مما يفسر جليا مدى ارتباط أهل بني يزناسن بدعاة الدين الاسلامي في فترة عرفت توافد العديد منهم لدواعي متعددة كان أبرزها:

1- الاضطهاد الذي عانوْه من حكام اختلفت سبلهم و رؤاهم للدين الاسلامي كمرجع لتدبير الشأن العام، لكن بتصور يعكس عن نوايا فيها من الخبث السياسي الذي يخدم أجندتهم، في تعارض تام مع فتاوى فقهاء متشبعين بأفكار ذات نهج صوفي صرف، و هو الأمر الذي خلق تصادما قويا نتج عنه محنة ذاق مرارتها علماء أجلاء، و لم يكن لهم من بد إلا اختيار المنفى الاضطراري إلى حيث يجدون ضالتهم، و مبتغاهم الذي يرجون من ورائه البحث عن مريدين و مناصرين لتوجهاتهم المعارضة للسلطة الحاكمة، و منهم من اختار ممارسة طقوس الخلوة الصوفية بأريحية بعيدا عن الاضطهاد، و قد كانت جبال بني يزناسن محجا مناسبا لهؤلاء الدعاة.

2 - خصوصية المنطقة التي تمتاز بجبال صعبة المسالك، تشجع على الاعتكاف لممارسة طقوس التصوف بعيدا عن مغريات الحياة التي قد تفسد عليهم خلوتهم، و قد وجدوا مبتغاهم بين تلك الجبال التي كانت على مر التاريخ محجا للعلماء الفارين من اضطهاد الحكام، بسبب دعوتهم التي خلقت لهم متاعب جمة حملتهم على اختيار وجهتهم، فكانت قبائل بني يزناسن محط رحالهم لاستكمال دعوتهم و استقطاب مزيد من المريدين، و هو الأمر الذي جعل جبالها تعج بأضرحة لأولياء مترامية في كل الأطراف، و قد يفسر ذلك بشيوع ظاهرة التصوف التي اختار أصحابها الاعتكاف و التزهد في تلك الأمكنة، و هو ما مهد لظهور زوايا فيما بعد .

3 - ستعداد أهل بني يزناسن لتقبل الآخر و حمايته و الاستماتة من أجله، خاصة إذا كان صاحب رسالة منبعها الدين الاسلامي، و هو ما جعلهم محط اهتمام الدعاة الفارين من الاضطهاد، ليجدوا لهم مقاما آمنا وسط أناس لديهم من الطباع و الشمائل التي لا تختلف في عمقها بين ما جاؤوا من أجله، و هو ما أحدث نوعا من التلاقي و التوافق الذي سهل تمرير توجهاتهم الدينية أو السياسية، و هذا الانسجام كان منطلقه نابعا من ظروف هيأت لاستقبال دعاة أخلصوا لدعوتهم، و سعوا إلى توسيع رقعة انتشارها بين أناس لديهم من الاستعداد للاعتقاد و التدين و نصرة حماته من الدعاة، و قد كان أهل بني يزناسن الأقرب إلى استيعاب مضمون الدعوة، و الانخراط في الجهاد من أجلها، لما تميزوا به من حمية و نزعة قتالية في سبيل إعلاء رسالة آمنوا بها و استحقت لديهم الاستماتة.

تلك عوامل كانت سببا وجيها لتوافد هؤلاء الدعاة على جبال بني يزناسن، بحيث وجدوا بين أناسهم سندا و نصرة لدعوتهم، فكانوا لهم مؤيدين و حماة، فآووهم و صاهروهم و اقتطعوهم جزءا من أراضيهم، ليوفروا لهم الأمن و الاستقرار الذي حرموا منه في بلدانهم، فتناسلوا لتكون لهم ذرية تكاثرت لتصبح عشيرة قوية بالعلم و العدد، و هم ما يسمونهم ب" الشرفة" للمكانة العلمية التي كانوا يحضون بها، فقد كانت كلمتهم نافذة يتدخلون في الصلح و الزواج وكل ما له علاقة بالخير و المنفعة، وذلك شكل لدى العامة نوعا من التقديس لهم استمر ردها من الزمن، فقد كانوا يحيطونهم بهالة من التقدير بلغت حد تحريم مناقشتهم، أو معارضة قراراتهم التي يجب تقبلها بكل طواعية وإلا أصابتك لعنة، نظير تصرفات قد لا تروق" الشرفاء" و لا تليق بمقامهم الاجتماعي و وضعهم العلمي، فتجد العامة من الناس بعقلية المنقاد و المتقبل لكل ما يصدر عنهم من كرامات يطلبون " التسليم"، و يرددون بين حين و آخر قولهم: " الله إقوي الحرم"، تفاديا لكل أذية قد تصيبهم كما لو أنهم قد ارتكبوا جرما موصوفا.

إننا بملامستنا لتلك الحقائق لا نريد الانتقاص من قدر أحد، فالشرفاء بحكم انتسابهم إلى جذوة تعود إلى أهل البيت، أو إلى شجرة فروعها من العلماء الأجلاء، و بحكم الصفاء الروحي الذي تميز به أهل بني يزناسن، فقد كان من الطبيعي أن تنبني علاقتهم على جانب من التقدير و الاحترام، الذي تحول في فترة إلى تقديس فيه من المغالاة في الانصياع و الانقياد لكل ما يصدر عنهم من قرارات و توجيهات، دون حق في الاعتراض أو إبداء رأي، لأن ذلك في نظرهم يعد تقليلا من احترامهم، فقد كانوا إذا تدخلوا في زواج أو فك نزاع أو ما شابه ذلك فإن الأمر سينقضي و دون اعتراض من أحد، و إذا استعصى عليهم إقناع

طرف بقبول تسوية ما فإنهم يلجأون إلى ما كانوا يسمونه ب:" جاه النبي"، في هذه الحالة لا يكون له من بد غير الاذعان لاقتراحاتهم، تلك ثقافة سادت بعيوبها و محاسنها و تقبَّلها عامة الناس، و رفعوا من شأن أصحابها، و نسجوا في حقهم قصصا و روايات عن الكرامات و الخوارق التي تحولت إلى خرافات اعتقدوا بها و صدقوها، لدرجة أن باتوا يؤدون خدمات من أجل كسب الرضا، و يتبعون طقوسا و شعائر تقوي صلتهم بجماعة" الشرفة"، و تُقربهم منهم أكثر عسى أن تحل عليهم البركة و تُقضى لهم الحاجات، مما يفسر انقيادا تاما تجلت مظاهره في الانصياع للتعليمات، و الخضوع لها بطواعية خدمة لهم، و تعزيزا لوجودهم الذي كانت بدايته مبنية على الاحترام لأهل المنطقة، و السعي إلى نشر العلم من أجل إخراجهم من بوتقة الجهل، و خلق مريدين يلتفون حول دعوتهم، و العمل على توحيد القبائل تحت مظلتهم، و قد نجحوا في تقوية صفوفهم بأتباع مجندين لنصرة رسالتهم الدعوية، لكن تحولات شابت توجههم الوحدوي التنويري لمّا كثر الأتباع المريدون، و أصبحت لهم عِزوة، نشأت على إثرها الزوايا التي احتضنتهم و تكتلوا داخلها، لممارسة الطقوس الصوفية بكل مظاهرها الخارجة عن الاعتدال و الغلو فيها، من قبيل" الحضرة" التي تُحدث هستيريا و هذيانا لصاحبها، في اعتقاد منهم أن الذات الإنسانية تسمو لتحل بها الذات الإلاهية، فيصدر على إثرها أصواتا غير مفهومة، أو سلوكات تتجاوز المنطق بشرب مياه ساخنة و إخراجها باردة، أو التداوي بأساليب فيها من الشعوذة و الخرافة لأمراض معينة، تمهيدا لإرساء معتقدات تكرس لعقليات تؤمن بالخوارق، تبعدهم عن المنهج الصحيح المُنطلق منه في بداية مشروعهم الدعوي، من أجل الانتفاع المادي، و تعزيز وجودهم بما يضمن لهم الاستمرار، و الإبقاء على نفوذهم و سلطتهم الدينية، و إعلاء صيتهم بين مريديهم، فكان لشيوع الخرافة التي أغْشت العقول سبيلا لتحقيق ذلك، و كل هذا طلبا للاسترزاق و الإستجداء لأجل مصالح نفعية، أبعدتهم أكثر عن المنهج الدعوي المعتدل الذي ينير العقول و يحررها من الفكر الخرافي المستبد، و من تقديس الأشخاص، في وقت كان فيه الدعاة يمثلون مدرسة لنشر العلم و محاربة الجهل و مصدرا للتربية على القيم، فكانوا يستحقون أن يطلق عليهم" الشرفاء"، لكن مع توالي الحقب التاريخية طال الانحراف مشروعهم الدعوي، و استبد بهم الخوف من فقدان نفوذهم فتحولوا إلى مرتزقة ساهموا في تدمير العقول بالخرافة و الشعوذة.

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف محمد ستي 2019©